

أغنية القيصر الأخيرة



سعد صبار السامرائي أغنية القيصر الأخيرة

انتشرت الموسيقى كفيروس في الأثير الرقمي، فاهلكت من أهلكت. لم ينج منها إلا "الأميون الموسيقيون"، أولئك الذين وُلدوا بلا قدرة على فهم الألحان أو تدويعها.

لكن ماذا عننا نحن؟ نحن الذين ما زلنا نسمع، نحن الذين تسأل الجمال إلى أرواحنا بلا رحمة؟ حين سمعتُ كاظم يُغني: "زيدني عشقاً زيدني.. يا أحلى نوبات جنوني" شعرتُ أنني ساهلك لا محالة. لم تكن مجرد طيات صوتية تتسلل إلى الأذن، بل كانت نسيجاً معقوداً يغيوط السحر والشجن، يمثلك ذلك الدفء العميق الذي يُحيي فيك ذكريات لم تُعش بعد، ويستدمي لواعج قديمة قد دفتها في قلبك ظناً أنها ثلاثت. هو الصوت الذي يرقى من الهمس الرقيق إلى صهيل العاطفة، مُحمّل بنبرة أسرة قادرة على هز أركان الروح، فتشعرُ به وكأنه يفترق المسافات بينك وبين اللازمي. رأيتُ في ألعابه ذلك الجمال المُطلق الذي تحدتُ عنه جذي، جمالاً أغشى أن يمتد إلى غيري فيهلكهم كما أهلكت أمم قبلنا.



نخيل نيوز / خاص

إن الحديثَ عن أدب الخيال العلمي في الأدب العربيّ قلّما يحظى بما يستحقّه من التحليل والتمحيص، وغالباً ما يُحاط بنظرةٍ ريبيةٍ أو استغراب. غير أن مطالعة مجموعة "أغنية القيصر الأخيرة" للكاتب والقصّ العراقي سعد السامرائي (الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2025)، تدفع القارئ إلى إعادة النظر في هذا الجنس الأدبي، بل وإلى التسليم بأنّ أدب الخيال العلمي يمكن أن يكون مرآة صافيةً تنعكس فيها هموم البشر الحقيقية، ولا سيما في عالمنا العربيّ المزدهم بصراعات الهوية والذاكرة والمستقبل.

وقد يلمس القارئ في هذه المجموعة مزيداً دقةً بين الهمّ الإنساني والمعالجة التقنية، بين نزوع الروح وتوثبّ العقل نحو راحةٍ جديدةٍ لا تكتفي بمجرد تقليد أمجاد الماضي أو الارتهان لسلطة الحاضر.

ولعلّ أول ما يلفتُ النظر في هذه المجموعة هو عنوانها: "أغنية القيصر الأخيرة"، بما ينطوي عليه من إشارة إلى فنّ الموسيقى، وما تمثّله من قيمةٍ جماليةٍ بالغة الرهافة، وكونها، في الوقت نفسه، عنصراً قد يهدّد سلطةً أو يحرك ثورةً أو يُغرق الأرواح. فإن كان "القيصر" هنا يشير إلى كاظم الساهر، فهو يمكن أن يكون رمزاً للقوة، أو رأساً للأمر والنهي.

لذا، تذكّرنا أغنيته الأخيرة بمصيرٍ معتمٍ تؤول إليه محاولة السيطرة على نبض الفنّ، الذي لا يكفّ عن التمرّد والانفلات.

تأتي القصة التي تحمل هذا الاسم مشحونةً بشحناتٍ رمزية، تؤسّس لعالمٍ مستقبليٍّ يخشى الموسيقى ويلاحقها، حتى تغدو أغنيةً واحدةً قادرةً على هدم السكون وإيقاظ أعماق جوانب النفس. ويبدو أن هذا الإطار القصصي لم يأت من فراغ، بل أراد الكاتب من خلاله أن يذكّرنا بأنّ الجمال، وإن كان محفوفاً بالخطر أحياناً، يظلّ حاملاً لقيم الخصب والتجدّد في روح الإنسان.

وفي مجمل قصص المجموعة، يمكن للمتذوّق أن يستشعر انشغال المؤلف بقضية الذاكرة والهوية، وتحولهما إلى ساحة

نخيل نيوز

صراعٍ لا ينجو منها إلا من يمتلك وعياً بتاريخه، وقدرةً على التمييز بين أصلته وهويّته، وبين ما يُفرض عليه بفعل التقنيات الحديثة. ففي قصة "استئصال الذاكرة"، مثلاً، نُصادف تقنيةً مرعبةً تزيل من عقل الإنسان ذكرياته المؤلمة، وكأنّ المحو هو السبيل الوحيد إلى النجاة. لكنّ الشخصية المحورية ترفض التفريط في آخر ما يربطها بمن تُحبّ، فتتمسكُ بذكرى موجعةٍ تحمل، في تلافيف عتمتها، نور المعنى ودفء المشاعر. وهنا يتجلى انحياز الكاتب إلى تلك الشظية الإنسانية اللامعة، حيث يدافع عن الحقّ في الألم بوصفه جزءاً من كينونة المرء وذاكرته.

أما في قصة "علينا أن نرقص"، فنطالع تفكك منظومة اجتماعيةٍ يتصدّرها من يُسميهم الكاتب "أهل النرجس" أو "أهل الأحموان" -وهي تسمياتٌ رمزيةٌ تُحيل إلى نخبٍ استسلمت لسحر التقنية أو أمزجة الكيمياء البديلة- فتتحوّل الحياة لديهم إلى لوحةٍ استعراضيةٍ ضخمة، تنقصها الروح الحقيقية.

في هذا السرد، تلتقي الغنائية الدافئة مع الرؤية الفلسفية، إذ يحرص الكاتب على ألا يقع في فخّ التقريرية، بل ينهجُ مساراً أدبياً يُؤلّف بين عوالم الشعور والخيال العلمي، فتغدو القصة أشبه بحوارٍ خفيٍّ بين القلب والعقل، بين حضارةٍ أسرةٍ وأخرى ضائعة.

من الناحية الأسلوبية، نرى المؤلف يضفر في لغته نفحاتٍ شعريّةً حسّاسة، لا تقطع السياق التخيلي المبني على وقائع مستقبلية، بل تؤازره وتُضفي عليه لمسةً إنسانيةً دافئة. فيلجأ في مواضعٍ إلى عباراتٍ مكثّفةٍ يمكن عدّها شذراتٍ تأملية، يعقبها في مواضعٍ أخرى جملٌ سرديّةٌ متسارعة توأكب إيقاع الأحداث. وهذا التناغم بين المفردة الجزلة والاتجاهات الخيالية يبرز عالم المجموعة كأنّه ملتقى بين واقعيةٍ صارمة في صراعاتها، ورهافةٍ وجدانيةٍ تفتقر إليها كثيرٌ من مدونات الخيال العلمي التقليدية.

أما البناء الفني العام، فقد توزّع على خمسة فصول تضمّ 28 قصة، لكنها ليست متنافرةً ولا متباعدة، بل تتلاقى في قلقها الجوهرى حيال مصير الإنسان حين تتسارع الآلات وتذبل الأحاسيس، أو حين يلهث البشر خلف التطور ظانّين أنّهم خلاصهم الوحيد. وهنا تتجلى رسالة العمل: إنّ الحفاظ على القيم التي تُنير الروح -كالذاكرة، والشعر، والموسيقى، والوفاء للعاطفة- هو سبيلنا للبقاء.

وخلاصة القول: إنّ "أغنية القيصر الأخيرة" عملٌ أدبيٌّ يعكس رغبةً ملدّةً في تحريض الذهن العربي على مجابهة الأسئلة الكبرى حول الهوية والذاكرة والتقنية، بأسلوبٍ يمتزج فيه الحسّ الجمالي بالطرح العقلي. فالمجموعة -على اختلاف حكاياتها- ترسم لنا عالماً يُخيّل إلينا أنه بعيد، بينما هو أقرب إلى أنفاسنا، في حاضرٍ نكاد نلمس فيه رياح التغيير تعصف بمعظياتنا كلّ يوم. لهذا، يُحسب للمؤلف أنه جعل من أدب الخيال العلمي وعاءً لصراعٍ عميق بين الطموح والألم، بين العبور إلى مستقبلٍ موارب، والتمسكُ بإنسانيتنا في اللحظة نفسها.

